

أوائل المرينيين والأزغار

إبراهيم أنوار

باحث - الرباط

الأزغار هو جزء من البلاد الغربية المحاذية للمحيط الأطلسي شمال المغرب⁽¹⁾، يتميز بانبساط تضاريسه وصعوبة اختراق بعض أجزائه خصوصا فصل الفيضانات الشتوية. تعاقبت على سكناه أقوام من سكان حوض البحر الأبيض المتوسط ، وعرف التعمير والخراب بشكل متعاقب لما عرفه من صراعات بين مجموعات سكانية محلية ووافدة. وهو منطقة عبور تصل جنوب المغرب الصحراوي بشماله المتوسطي الشيء الذي أعطاه أهمية استراتيجية مضافة إلى غناه الطبيعي وبالتالي تنوع موارده الاقتصادية.

وسنحاول في هذه المساهمة، وضع فترة قصيرة من تاريخه الوسيط تحت المجهر لرصد التحولات التي عرفها المجال داخل محيطه الحيوي وفي علاقات الأطراف المتساكنة فيه بالعناصر الوافدة عليه خلال الفترة الممتدة من بداية القرن 7هـ/13م إلى الربع الأخير منه.

1. الصراعات العسكرية حول الأزغار

ظهر المرينيون على الساحة العسكرية المغربية بعد هزيمة العقاب سنة 609هـ/1212م ووفاة محمد الناصر سنة 610هـ/1213م، فقصدوا في البداية الجهة

(1) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للترجمة والنشر، الرباط 80-1982، ص. 233.

الشمالية - الشرقية للمغرب، وابتداء من سنة 613هـ/1216م، وعلى إثر هزيمة الموحدين أمامهم في نكور بدأت أنظارهم تتجه نحو البلاد الغربية⁽²⁾، فدخلوا بذلك في صراع مفتوح أطرافه الرئيسيون هم نواب الموحدين، والسكان المحليون الموالون لهم من جهة، والمرينيون ومن انضم إليهم من جهة أخرى. فتأسست على إثر هذا التدخل شبكة علاقات وتحالفات تتغير أطرافها بتغير الأحوال والظروف وعدد وقوة المتدخلين من بلاد المغرب الأقصى والمغرب الكبير، بل تجاوزت هذا المجال إلى الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط بالأندلس والمغرب المسيحي، فنسجت شبكة علاقات متداخلة ومعقدة، سنحاول التعرف على أطرافها موزاة مع تحرك المرينين داخل هذا المجال، وما أحدثه هذا التحرك من خلخلة في بنيات التكتلات.

أ- المخططة الأولى

أول حدث يمكن أن نسجله في علاقة المرينيين بمجال الأزغار هو مقتل عبد الحق بن محيو جد السلالة المرينية التي أسست أسرة حاكمة وذلك عام 614هـ/1217م بتفراطاست⁽³⁾، قريبا من نهر سبو هو وابنه إدريس في معركة جمعت بني مرين بعرب رياح⁽⁴⁾. ذلك أن المرينيين لما دخلوا المغرب في عام 613هـ/1216م، فرت القبائل في وجههم خوفا منهم ومن غاراتهم : "فمن أذعن لهم بالطاعة سالموه، ومن بدأهم بالحرب قاتلوه، وقصموه، ففر الناس من أمامهم يمينا وشمالا ولحقوا بالجلال المنية لتكون لهم حصنا ومآلا"⁽⁵⁾، إلى أن وقع الاصطدام بقبيلة رياح العربية، وكانت من أقوى القبائل المستقرة في الأزغار عام 614هـ/1217م فترتب عنه مقتل عبد الحق بن

(2) يقصد بالبلاد الغربية الأراضي الواقعة غرب رباط تازة، وأهم الحواضر بها فاس ومكناس وسلا ورباط الفتح وقصر عبد الكريم وطنجة.

(3) عن موقع تفراطاست يمكن الرجوع إلى :

Joudi-hassar-Benslimane, Ain Karuash, un nouveau site archéologique islamique dans le Gharb, B.A.M., t. 12, 1978-80, pp. 361-376

(4) عن عرب رياح واستقرارهم في الغرب يمكن الرجوع :

Michaux-Bellaire, Le Gharb, Archives Marocaines, t. 20, 1913, pp. 25, 95-99.

G. Marçais, Les Arabes en Bérberie du XIe au XIVe siècle. Paris, E. Leroux, 1913, pp. 325-327, 331, 331, 336, 347.

(5) علي بن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص. 283.

محيو، ليتابع ابنه أبو سعيد عثمان (614-638هـ/1217-1240م) قتالها حتى خضع له أفرادها، "فكف عنهم مقابل مال جليل يؤدونه له في كل سنة"⁽⁶⁾.

كان من نتائج هذا الصراع، أن تقلص نفوذ الموحيدين في الجهة الغربية لينحصر في المدن وتخرج البوادي عن طاعتهم إما لصالح بني مرين أو تترك للفوضى والفتن.

ب- المخططة الثانية

غزا أبو سعيد عثمان (614-638هـ/1217-1240م) عرب رياح المقيمين بالأزغار سنة 621هـ/5-1224 م فأبادهم وأخلى ديارهم⁽⁷⁾. ويدخل هذا الغزو المريني لعرب رياح في إطار مسلسل الاضطرابات التي عرفت البلاد بعد وفاة المستنصر سنة 620هـ/4-1223م، فقرر أبو سعيد عثمان التحرك في اتجاه الغرب مستغلا اضطراب الأحوال السياسية بمراكش، واستبداد الأشياخ فيها الشيء الذي ترتب عنه عدم استقرار انعكس سلبا على مجمل الحياة، والتي لخصها صاحب الأنيس المطرب في قوله: "فلما رأى الأمير عثمان بن عبد الحق أن ملوك الموحيدين قد ضعفت دولتهم، وضعوا حرمتهم وأهملوا رعيته... جمع أشياخ مرين (...) فسار بجيوشه الوافرة وجنوده المنصورة الظافرة في بلاد المغرب وقبائله (...) فمن سارع إلى بيعته ودخل في طاعته أمنه ووضع عنه الخراج وتركه آمنا منيعا، ومن حاده، ونابذه أباده نهبا وقتلا وغادره صريعا (...). وفي سنة إحدى وعشرين غزا من بفحص أزغار من قبائل العرب فأبادهم وأخلى ديارهم"⁽⁸⁾.

إذن، هذا المسلسل بدأت أطواره مع ما أصاب المغرب منذ تحرك بني مرين من الجهة الشرقية إلى البلاد الغربية عام 614هـ/1217 م، وما عام 621هـ/5-1224م الذي وقع فيه غزو الأزغار إلا محطة من محطاته الرئيسية، وهذا المسلسل لم يتوقف عند حدود الانعكاسات السياسية التي تجلت في صراعات البيت الحاكم حول كرسى الخلافة،

(6) ن.م، ص. 288.

(7) ن.م، ص. 289.

(8) الأنيس... م.س، ص. 288-289.

- محمد القبلي: "التحركات القبلية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12 ونهاية 13م.

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، عدد مزدوج 21-22، 1996-1997، ص. 56

بل تجاوزته إلى السكان والحياة العامة في أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية والتي لخصها النص أعلاه، وسكت عنها ابن عذاري في البيان وهذا الوضع العام، هو الذي ساهم في إضعاف القبائل المستقرة في السهول، وإلا كيف نفسر قدرة بني مرين على غزو رياح القبيلة العربية القوية المستقرة في مجال يؤمن لها مصادر قوة بإمكانياته، ومناعته، وإخلاء ديارها وإبادة فرسانها؟ لا يمكن أن نفهم هذا الانتصار إلا ضمن هذا السياق العام والمسلسل الطويل الذي لم يتوقف عند حدود سنة 621هـ/1224-5م بل تجاوزته إلى أبعد من ذلك، إذا حصرنا عنايتنا على السنوات القريبة من هذا الغزو، فمسلسل الانتكاسات داخل البيت الموحيدي عرف ذروته بين سنتي 621هـ/1224-5م و624هـ/1226-7م، إذ ب وفاة المستنصر سنة 621هـ/1224-5م، بايع الأشياخ عبد الواحد وخلعوه، وقتلوه في السنة نفسها، وبعثوا بيعتهم إلى عبد الله العادل بالأندلس، فالتحق بمراكش تاركا أخاه أبا العلاء خليفة عنه في إشبيلية، وعبد الله البياسي بقرطبة.

ورغم الاستقرار المشوب بالخدر الذي عرفته البلاد فإن الوضع الأمني لم يكن مستقرا، فالصراع احتدم في الأنندلس بين عبد الله البياسي وأبي العلاء، انتهى بهزيمة البياسي في صفر 623هـ/1226م وثورة أهل قرطبة عليه وقتله، وما إن استقر الوضع نسبيا في الأنندلس حتى ثارت قبائل الخلط على العادل في الحوز، وهزمت أول جيش جهزه وبعث به لإخماد تمردهم، فانقلب الأشياخ الموحدون على العادل وطلبوا تنحيته، وأمام إصراره، قتلوه لبيابيع المعتصم، ويفصل من عامه، ويبيع يحيى ثم المامون، وبقي الصراع قائما بينهما إلى وفاة المامون وبيعة الرشيد، ليظل يحيى مشاكسا متربصا أيام حكم الرشيد إلى أن قتله عرب المعقل في أحواز تازة في ذي القعدة 633هـ/1235-6م. فهذا مسلسل دام أكثر من عقدين، وجرت أحداثه الكبرى بين مراكش والأنندلس، ولم تكن البلاد الغربية بصفة عامة والأزغار بصفة خاصة بعيدا عما جرى في هذين المجالين لوقوعه بينهما.

ج- المخططة الثالثة

لما وصل أبو محمد عبد الله بن وانودين نائبا عن الخليفة عبد الواحد الرشيد إلى الجهة الغربية، دخل في صراع مع بني مرين، وعمل على اغتيال أبي سعيد عثمان

بن عبدالحق. يقول ابن عذاري : "وفي هذه السنة وهي سنة سبع وثلاثين وستمائة استشهد الأمير عثمان بن عبد الحق رحمه الله تعالى ، قيل إن علجا من أعلاجه غدره وضربه ضربة بخنجر قطع به أوداجه فمات من حينه، وهرب العلج إلى ابن وانودين فعرفه بالأمر فأعطاه وأرضاه، وقيل إن ابن وانودين هو الذي حرّضه على ذلك واتفق معه عليه ثم صرفه ابن وانودين بعد ذلك من عنده فلم يعلم صحة خبر"⁽⁹⁾. وفي رواية صاحب الأنيس المطرب : "اغتاله علج كان رباه صغيرا ضربه بحربة في منحره فمات من حينه، وذلك سنة ثمان وثلاثين وستمائة"⁽¹⁰⁾ دون أن يذكر أسباب هذا الاغتيال.

ترتب عن الاغتيال انشقاق في الصف المريني، ذلك أن بني عسكر عارضوا بيعة أبي معرف بن عبد الحق، ف وقعت حروب بين الفريقين استغلها عبد الله بن وانودين ليدعم بمعية عرب رياح صف بني عسكر، لكن خطته باءت بالفشل، إذ استطاع بنو حمامة بقيادة أبي معرف أن يهزموا حلفاء ابن وانودين، ويدفعوا بهذا الأخير إلى قصر عبدالكريم "فزاد بنو مرين بهزيمته وبما كان من استيلائهم على محلته في الغرب علوا وظهورا (...)" واستولى أيضا بنو مرين بعد تلك الكائنة على ما كان بجهة القصر من عرب رياح إثر تلك الهزيمة وغنموهم غيمة عظيمة، والأمير معرف بن عبد الحق انقاد له جميع القبائل المرينية وبعض الغمارية والمغربية، فكان بنو مرين يجولون في تلك البلاد ولا مدافع لهم لقتال ولا جلاذ"⁽¹¹⁾. أهم ما في هذه النازلة، تلك الرغبة الدفينة التي لبني عسكر أصحاب الزعامة على بني مرين في استعادة هذه الزعامة من جديد⁽¹²⁾ لكن صرامة بني حمامة في الاحتفاظ بالزعامة المرينية جعلت هذه المحاولة تبوء بالفشل.

د- المخططة الرابعة

هي حادثة سلا التي كانت نتيجة صراع داخلي بين بني عبد الحق، ذلك أنه بعد بيعة يعقوب بن عبد الحق، خرج عليه ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق واستولى على مدينة سلا، وطلب مساعدة ملك قشتالة الفونس العاشر الذي جهز

(9) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق هويثي ميراندا ومحمد الكتاني، تطوان، 1960، الجزء 3، ص. 351.

(10) الأنيس...، م.س، ص. 289.

(11) البيان، الجزء 3، ص 354.

Maya Shatzmiller : «Islam de campagne et Islam de ville», Studia islamica, 1980, t. LI, p. 126. (12)

لاحتلالها أسطولا، وصلها قبل شوال 685هـ/7-1286 م لباغت أهلها، ويقيم القشتاليون بها ثلاثة عشر يوما⁽¹³⁾، ويطردهم منها يعقوب بن عبدالحق : "ذلك أنه لما بلغ الأمير أبا يوسف خبر أهل سلا واستيلاء النصاري عليها بادر بعساكره إليها فحاصر الكفرة فيها أعظم حصار واجتمع المسلمون عليها من البلاد الغربية وما والاها من الأقطار... ودام القتال مدة ثلاثة عشر يوما إلى أن خرج منها الكفار، وملك الأمير يوسف مدينتي سلا ورباط فتحها"⁽¹⁴⁾. وفتح المدينة من قبل يعقوب بن عبد الحق، حسم الصراع داخل البيت الحاكم لصالح يعقوب بن عبد الحق، وفتح أمامه آفاق رحبة لتثبيت حكمه، وتوسيع دائرة نفوذه، فتسمى بأمير المسلمين، وأصبح يحدث نفسه بالتوسع في تامسنا وبالتالي التوجه نحو مراكش، وإعلان الجهاد بالتوجه نحو الشمال والأندلس، وكل هذه العناصر تدعم مشروعية حكمه.

2- عناصر بناء مشروعية الحكم

أ- من الغارة إلى التدجين

تؤكد جميع المصادر المرينية أن قبائل بني مرين الزناتية خرجت من مواطنها بشرق المغرب دون أن يكون هدفها بناء دولة ولا حتى الاستقرار في البلاد الغربية المغربية، لكن الوضع الأمني المتدهور بالبلاد الغربية، جعلها تتحول فجأة لا فقط على مستوى الفعل بل أيضا على مستوى الخطاب من قبائل تشن الغارات على الجهات الغربية للتوسع فيها وفرض الغرامات على ساكنيها إلى باحثة عن الاستقرار والأمان، بل مدافعة عنه بعد أن كانت عنصر شغب يهدده، ففي عام 613هـ/7-1216م دخلت مرين المغرب وتفرقت قبائلها في أنحاء، وشنوا الغارات على بلاده وأرجائه⁽¹⁵⁾، فدخول القبائل الرعوية إلى المغرب حسب هذه المصادر هو دخول سلمي، إلا من أعلن الحرب عليها فستكون في موقع "الدفاع الشرعي" عن نفسها ومكتسباتها، أما فرار الناس في وجهها، فهذا أمر تقتضيه الاحتياطات الأمنية للمستقرين، ولا يعني في شيء القبائل الرعوية القوية والتي تبحث عن مجال حيوي

(13) البيان... 3، ص. 424-422. Ch..E.. dufourcq, «Un projet castillan au XIIIe s.»

(14) البيان... 3، ص. 426.

(15) الأنيس...، ص. 283.

تتوسع فيه، فطرد السكان والتوسع على حسابهم أمر لا جدال فيه الحاجة هذه القبائل إلى أراضي تنتجع فيها⁽¹⁶⁾. إذ ابتداء من عام 613هـ/7-1216 م عام المشعلة الذي هاجمت فيه جيوش الموحدين بني مرين عند واد النكور، وانهزمت لترجع إلى فاس مقهورة، أعطي الضوء الأخضر لبني مرين للهجوم على الجهة الغربية التي كانت إلى ذلك الحين خاضعة للموحدين وحلفائهم من القبائل المصمودية الغمارية والعربية الراحية، فهذه المواجهة غير المتكافئة بين جيش تعمل به مليشيات مسيحية مرتزقة ومحترفة للقتال، وفئة قليلة في مجال انتجاعها حسب روايتها، هو الذي أعطاها مشروعية الخروج من مجالها بعد انتصارها.

هذا التصوير المكيف للأحداث : فئة قليلة تواجه فئة كثيرة وتنتصر عليها، يحيل على إطار مرجعي إسلامي يجد عناصره المؤسسة في القرآن والسيرة، ويساعد على بناء المشروعية. فمتى اكتسبت القبائل المرينية الرعوية هذه القدرة على تكيف الوقائع لصالح مشروعية حكمها؟ الجواب عن السؤال مرتبط بسؤال آخر، وهو متى وقع تدوين أحداث بداية القرن 7هـ/13 م ؟ المؤكد أنها دونت بداية القرن 8هـ/14 م، فالفترة الفاصلة بين وقوع الأحداث وتدوينها كافية لتكييفها لصالح الغالب⁽¹⁷⁾. هكذا جاء وصف الفترة في الأنيس على الشكل التالي : "بعد 614هـ/8-1217م ضعفت دولة الموحدين، وظهر فيها النقص وتبين أي تبين، وصارت ملوكهم ليس لهم حكم في البوادي، إنما سلطانهم في المدن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل واشتد الخوف في الطرقات والمناهل... فلما رأى الأمير عثمان بن عبد الحق أن ملوك الموحدين قد ضعفت دولتهم وضيعوا حرمتهم وأهملوا رعيته، واعتكفوا في قصورهم واحتجبوا عن مهمات أمورهم... رأى أن ضلالهم قد تبين وغزوهم على من له قدرة قد تعين، وخلعهم من أوجب الواجب لعجزهم عن القيام بالحق الواجب، جمع أشياء مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين والنظر في مصالح المسلمين فوجدهم إلى ذلك مسرعين، فسار بجيوشه الوافرة وجنوده المنصورة الظافرة في بلاد المغرب وقبائله... فمن سارع إلى بيعته ودخل في طاعته أمنه ووضع عنه الخراج... ومن حاده ونابده أباده نهبا وقتلا...".

(16) محمد القبلي "التحركات القبلية... م.س، ص. 50.

M. Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Maisonneuve et Larose, (17) Paris, 1986, p. 11.

Maya Shatzmiller, «Islam de campagne»..., op. cit., p. 128.

لخص صاحب الأنيس المطرب الوضع في المغرب بين 614 و620هـ/1217-1223 م، ووصفه بعدم الاستقرار الذي يستوجب البحث عمن يضمن الأمن للسكان في حلهم وترحالهم بعد تخلي بني عبد المومن عن واجبهم في ضمان الأمن والاستقرار للسكان الذين يابعوهم. ومن هنا، ضرورة تغيير هذه المنكرات، والقيام بالعدل في الرعية بضمان الأمن والاستقرار والمستعد للقيام بهذا "الواجب الديني والاجتماعي" جماعة بني مرين بزعامة يعقوب بن عبدالحق، يقول عبدالعزيز الملزوزي :

فأمن الغرب من الفساد	ونشر العدل على العباد
ولم يدع في الغرب من يجور	وزالت الأهوال والفجور
وخضعت مرين تحت قهره	وأذعنوا لنهيه وأمره
ورفع الظلم عن الرعية	وقمع الطغاة في البرية ⁽¹⁸⁾

ووجد هذا الاستعداد إقبالا لدى القبائل المرينية وأشياخها الذين استجابوا لدعوته لتطويع القبائل الرافضة للوجود المريني بالغرب، وعلى رأسها رياح المستقرة بالأزغار وحليفة الموحدين المتخلين، حسب هذه الرواية، عن القيام بواجبهم الديني كأمرأ للمومنين، والمنهمكين بقصورهم في شرب الخمر، وحضور حفلات المجون الشيء الذي يسقط عنهم الأهلية، ويسمح بالتحلل من بيعتهم بل يجعل إسقاطها واجبا دينيا، ويجعل العمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الضرورات الدينية والاجتماعية والأمنية. هذا في الوقت الذي سكت فيه ابن عذارى عن التعليق على الوجود المريني بالجهة الغربية، وعما أحدثوه من نهب وتخريب، كانت له آثار سلبية على الإنتاج والاستقرار والأمن، والذي امتدت آثاره إلى خارج هذا المجال⁽¹⁹⁾، وهو ما أكدته الرسالة المؤرخة بـ 10 ربيع الأول 617هـ/15 ماي 1220م من المستنصر إلى المسؤولين بالبلاد الغربية والأندلسية، والتي تضمنت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهل يمكن اعتبار خطاب الأنيس المطرب جوابا على هذه الرسالة الوعظية، وبالتالي فهي "حرب بيانات" بين

(18) الأنيس،... س.م. ص. 300-301.

(19) الأنيس،... ص. 273، البيان...، الجزء 3، ص. 244.

مشروعية تتآكل وأخرى تبنى على أنقاضها ؟ وقد ضاعت بينهما قبيلة رياح التي كانت ضحية ولائها لبني عبد المومن من جهة، ووجودها في مجال تستهدفه غزوات بني مرين دون مدافع يساعد على رد هذه الغزوات من جهة ثانية، فتم غزوها من قبل عثمان بن عبد الحق عام 621هـ/5-1224 م لتسترجع عافيتها مع وصول عبد الله بن وانودين نائبا عن الخليفة الرشيد بين 636هـ/9-1238 م و638هـ/1-1240 م في البلاد الغربية، والذي عزز قوة قبيلة رياح، وأحدث شرخا في الصف المريني بتحريك الصراع الكامن والخفي حول الزعامة بين بني حماسة وبني عسكر، دافعا بقبيلة رياح الراغبة في إعادة الاعتبار إليها وإلى سلطتها على الأزغار لتساند بني عسكر الراغبين في استعادة الزعامة التي ضاعت منهم.

ولم يتوقف تدخل ابن وانودين عند هذا الحد، بل امتد إلى حاشية عثمان بن عبد الحق ليغري أحد العلوج المقربين إليه ويغتاله⁽²⁰⁾. وقد أحدث هذا الإغتيال ارتباكا في صفوف بني حماسة لصالح بني عسكر ورياح وابن وانودين، لكن أبا معرف محمد قضى على هذا الارتباك عندما هزم هذا الحلف، والذي تعرض لضربات محلية وخارجية لعبت كلها لصالح بني مرين إن على المستوى العسكري أو على مستوى بناء مشروعية قيام دولة فيما بعد. فاتهم ابن وانودين برغبته في الانفصال والاستبداد بالبلاد الغربية⁽²¹⁾.

نستخلص من كل هذا، أن الصراعات المذكورة الثلاثة لم تتجاوز البعد القبلي، صراع مريني رياحي عام 613هـ/7-1216 م حول الأزغار هدفه الوصول إلى المراعي الخصبة التي كانت تسيطر عليها قبيلة رياح، والثاني معاودة في نفس الاتجاه تستغل سوء الأحوال الأمنية في البلاد الناتج عن الصراعات الداخلية للبيت الحاكم 621هـ/5-1224 م. والصراع الأخير هو صراع مفتوح بين ابن وانودين الممثل الرسمي للموحدين وهو من الأشياخ الكبار الذين لعبوا أدوارا خطيرة تركت بصماتها في تاريخ الدولة الموحدية، وبين بني مرين تخلله صراع ثانوي، أطرافه بنو مرين وبنو عسكر مدعومين بقبيلة رياح، بنو مرين يقاتلون للحفاظ على مكتسباتهم، وبنو عسكر لاسترجاع الزعامة إلى معسكرهم، وقبيلة رياح للتخلص من منافسهم.

(20) البيان ... ج. 3، ص. 351.

(21) ن. م : 3، ص. 353.

وانتهى هذا الصراع إن على المستوى العسكري أو الخطاب المؤسس لصالح بني مرين الذين بانتصارهم على ابن وانودين، بدأوا يتطلعون إلى آفاق أخرى أكثر رحابة قدمها حادث سلا على طبق من ذهب.

ب- الجهاد من رد غارة قشتالة عن سلا إلى مؤسسة الغزاة

إن المحور المجالي لهذا الصراع هو حوض الأبيض المتوسط، وقد اتخذ أبعادا محلية متداخلة المصالح، متباينة الأهداف والاستراتيجيات. فأطراف الصراع الرئيسيون هم الموحدون الذين وضعت تركتهم على المشرحة تتقاسمها الممالك المسيحية والأمراء المحليون في الأندلس، وبنو حفص في إفريقية، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط، والمرينيون في شمال المغرب.

فالممالك المسيحية، بعد هزيمة العقاب، أصبحت تتجاسر على المدن والقرى الأندلسية بالحصار وبناء شبكة تحالفات تدعم بناء قوة مسيحية وضعت صوب عينها نحو آثار الوجود الإسلامي من الأندلس، بل كانت تطمع في الضفة الجنوبية للأبيض المتوسط. ودخلت قشتالة في حرب مكشوفة عندما وصلت السفن من إفريقية والمغرب (طنجة وسبتة) لمناصرة اشبيلية المحاصرة من قبل ألفونس عام 646هـ/1228م⁽²²⁾.

ومنذ احتلال ألفونس لإشبيلية، نهج سياسة تقوم على تناقض، أطرافه الرئيسيون الموحدون ومنافسهم في المغرب الكبير، ففي الوقت الذي مد بني عبد المومن بالمليشيات، حاول إخضاع المناطق الخارجة عن نفوذهم في الأندلس، ووجه السفن للقيام بأعمال القرصنة في السواحل الخارجة عن طاعتهم سواء في المغرب الأقصى أو خارجه في إفريقية والمغرب الأوسط. هذه السياسة المزدوجة لازمت سلوك القشتاليين، وهي التي كانت وراء مباغته أهل سلا عام 658هـ/1259م. إذن، هذا المسلسل الذي بدأت أطواره على المدى القصير عام 646هـ/1248م تاريخ سقوط اشبيلية التي لم يتحرك السعيد لإغاثتها، ومرادة المرتضى على اعتناق المسيحية، وقبله فشل مشروع أسقفية مراكش، فبدأ القشتاليون ومعهم البابوية يقتنعون بضرورة التخلي عن مشروع تمسيح المغرب الداخلي، وتركيز

(22) ابن عذاري : البيان ... 338/3. op. cit., p. 27. Ch. E. Dufoucq. «Un projet...»

الجهود على المغرب الساحلي، فتم إحداث منصب أمير البحر في قشتالة وأسند إلى Ruy Lopez de Mondoza سنة 1254م/651 هـ، وأنشئ الأسطول القشتالي المستعد للمغامرة في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ولتتھيا الأجواء لمثل هذا العمل وقع ألفونس العاشر مع محمد بن الأحمر عام 1254م/651 هـ اتفاقية صداقة، وكانت غرناطة منذ 624هـ/7-1226م تؤدي ضريبة سنوية لألفونس. وفي 1258م/655 هـ، استقبل وفدا حفصيا، وأبدى له الرغبة في الهدنة مع الحفصيين ليتفرغ للمغرب، واستقبل أيضا في 1260م/658 هـ سفارة مصرية.

كل هذه الأعمال الدبلوماسية، بالإضافة إلى التكتل المسيحي الذي كانت تقوده البابوية ومركز سان جاك دو كومبوستيل Saint Jacques de Compostelle ومصالح مملكة البرتغال والمدن التجارية المتوسطية في فرنسا وإيطاليا، فإن هذا التحالف المسيحي الموالي لبني عبد المومن، والداعم لجهودهم العسكرية ضد منافسيهم عن طريق تزويدهم بالمليشيات المسيحية، جعل بني عبد الحق يدخلون في صراع غير مباشر مع القشتاليين، وجعل أطماع القشتاليين تتجه نحو البلاد الواقعة تحت نفوذ بني مرين وهي أقرب الجهات إليهم، وأولى مدنها أصيلا وسلا، وقد أغرى القشتاليين بالهجوم على هذه الأخيرة الصراع الداخلي المريني، فمنذ عام 647هـ/50-1949 م أصبحت هذه المدينة ذات الأهمية الاستراتيجية والتجارية وهي البوابة الساحلية الجنوبية الرئيسية للأزغار تابعة لبني مرين عندما أخضعها أبو بكر بن عبد الحق (642-656هـ/1244-1258م). لكن ما أن تمت بيعة يعقوب بن عبد الحق عام 656هـ/1258 م حتى قام عليه ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق، وأخضع مدينة سلا لحكمه، وطلب ملك قشتالة بممد يد العون إليه بالمليشيات ليستخلص المدينة لنفسه. فكانت تلك فرصة ألفونس السانحة ليحتل سلا من 2 إلى 15 شوال 658هـ/من 10 إلى 23 شتنبر 1260م، وليطرد منها القشتاليين بقيادة خوان كانسيا دو فيلا مايور Juan Gancia de Vilamayoz ومساعدته بيدرو مارتينيز دو سانتا في Pedro Martinez de Santa Fe، وترتب عن هذا الطرد عدة نتائج⁽²³⁾ :

CH. E. Dufourcq : «Un projet...», op. cit, pp. 28-38. (23)

- بخصوص القشتاليين

- 1- فر أمير البحر القشتالي إلى البرتغال خوفا من ألفونس.
- 2- راجع ألفونس أوراقه بخصوص مشروعه التوسعي الصليبي الرامي إلى غزو سواحل المغرب.
- 3- توقف الزحف المسيحي ولو مؤقتا بالأندلس، وبدأت انتفاضات المسلمين تتوالى ضد الممالك المسيحية.

- بخصوص المرينيين

- 1- تسمى يعقوب بن عبد الحق أميرا للمسلمين بعد أن عاد إليه من جديد حكم مدينة سلا والرباط والبلاد الواقعة شمالهما، والتي كادت أن تخرج من بين يديه خصوصا وأنه كان يتردد بين فاس ورباط تازة بعيدا نسبيا عنهما.
- 2- تأسيس مشيخة الغزاة التي اعتمدت من طرف السلاطين المرينيين وسيلة لإبعاد العناصر المناوئة للسلطة ورأس الرمح في الأندلس لردع حركة الاسترداد، فبدأ بذلك الاهتمام بالشأن الأندلسي⁽²⁴⁾.

3- أهمية الأزغار

أ- الأهمية الاقتصادية

يطرح اختيار مدة قصيرة في مجال ضيق كالأزغار تقل أخباره في المصادر على اختلاف أنواعها، تحديات كبيرة على كل محاولة للفهم، لكن توطين المجال في محيطه الواسع الذي يتجاوز حدود المغرب الأقصى لينصهر في حوض البحر الأبيض المتوسط شمالا والصحراء وبلاد السودان جنوبا، والنظر إلى نصف قرن داخل إطار زمني أوسع على المدين القصير والبعيد، يسهل إضاءة مناطق الظل، ويسهل فهم غوامض النصوص وسكوتها، والعناصر المساهمة في وضع الحجب أمام الفهم السليم للوضع، فرغم أن الأزغار غني طبيعيا فهو سهل تخترقه مجاري مائية لا ينقطع الماء في معظمها طوال أوقات السنة كسبو وبهت والدرادر وروافدها، ويتلقى كميات أمطار لا تقل عن 500 مم سنويا، وبمعظمه تربة خصبة، إلا أن عناصر

(24) الجوازات الأربع ليعقوب بن عبد الحق، الأنيس...، ص. 313-349.

غناه الطبيعية كانت وربما لفترات طويلة سببا في فقره وهو ما لخصه في عبارة بليغة محمد العبدري الحيجي عام 688هـ/1289-90 م في قوله : "الغرب دنيا بلا رجال والقبلة رجال بلا دنيا"⁽²⁵⁾، وإن كان يشير إلى البلاد الغربية بصفة عامة ويدخل ضمنها الأزغار نهاية القرن 7هـ/13 م. وانتهى الأستاذ حجاج الطويل في مقال له عن النشاط الاقتصادي لمنطقة الغرب خلال العصر الوسيط⁽²⁶⁾ إلى خلاصة رئيسية مضمونها : أن منطقة الغرب عرفت ازدهارها الاقتصادي خلال عهد الأدارسة لتراجع نسبيا خلال العصر المرابطي وتنتقل من جديد، وتعرف أقصى عطائها خلال العصر الوسيط على عهد الموحيدين خصوصا أيام يعقوب المنصور 580-595هـ/1184-1199 م.

وقبل القرن 5هـ/11م كانت العناية بالأطراف القريبة من مقدمة الريف، وبرزت خلالها مدن البصرة وكورت كمدينتين كبيرتين هامتين بما تنتجانه من مواد فلاحية غذائية وصناعية تكفي بل تصدر، وبما عرفت المجاري المائية من صيد للأسماك ذكر أنواعها وقيمتها صاحب الاستبصار⁽²⁷⁾، وصفهما البكري بالكبيرتين، الأولى عرفت باتساع المراعي وكثرة الضرع والألبان وعرفت أيضا ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون في بدء أمرهم في جميع تجارتهم بالكتان، وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة⁽²⁸⁾. أما كورت فعرفت تراجعا خلال القرن 5هـ/11م، ووصفها صاحب الاستبصار خلال القرن 6هـ/12 م بقوله : "مدينة كورت كانت مدينة كبيرة حصينة كثيرة الخير على نظر كبير يعمرها قبائل من البربر يقال لهم بياتة، وهي اليوم 587هـ عامرة"⁽²⁹⁾.

(25) محمد العبدري، رحلة، تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968، ص. 9.
(26) حجاج الطويل "النشاط الاقتصادي لمنطقة الغرب خلال العصر الوسيط"، ضمن أعمال الندوة العالمية التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة أيام 22-23-24 أكتوبر 1999 تحت عنوان منطقة الغرب المجال والإنسان، ص 45-52.

(27) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد ودار النشر المغربية 1986، ص 184. ويمكن الرجوع أيضا إلى مقال :

M. Houbaida «Notes sur l'économie rurale du Gharb au Moyen âge», Actes du colloque international organisé par la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Kénitra, 22-24 Octobre 1991. p. 68-69.

(28) أبو عبيد الله - البكري. المسالك والممالك، ترجمة دوسلان، طبعة باريس، 1965، ص. 110.

(29) مجهول، الاستبصار... م. س، ص 189.

بعد القرن 5هـ/11م، عرف الأزغار تطورا كبيرا مع بناء المعمورة ودار صناعتها على عهد يعقوب المنصور، مستفيدة من الغابة المجاورة للأزغار التي كانت مركزا لأنشطة اقتصادية مختلفة تتعلق بالخشب المعد للتجارة، وصناعة السفن خصوصا مع وجود دار الصناعة في المهديّة (حلق الواد) خلال العصر الموحدوي والتي كانت أكبر دار صنعة في المغرب الكبير أو الفحم المستعمل في الطهي وبعض الصناعات، كما كان يعيش بها الرعاة مع قطعانهم، وجامعو البلوط وهو مادة غذائية غنية مغذية وأخيرا الصيادون، فجميع هؤلاء كان عيشهم مرتبطا بهذه الغابة التي بها ينتهي الأزغار في حده الجنوبي⁽³⁰⁾.

ولا نجد آثارا ترصد الحياة الاقتصادية خلال الفترة التي تعينا 614-684هـ/1217-1285م إلا ما كان من إشارات سلبية تتعلق بالمجاعات ابتداء من سنة 615 هـ/9-1218م التي سماها المصامدة والموحدون سنة واقليل، وما تلاها سنة 616هـ/20-1219م من مجاعة، وسنة 617هـ/21-1220م من قحط وجراد خصوصا في البلاد الغربية والأندلس، وسنة 624هـ/7-1226م من غلاء، وسنة 630هـ/3-1232م من جوع ووباء، وسنة 634هـ/7-1236م من غلاء مفرط حتى نفقت السلع في الأسواق، وسنة 635هـ/8-1237م التي اشتد فيها الغلاء والوباء.

إن الإشارات التي أوردنا كلها سلبية، ويمكن تصنيفها إلى طبيعية كالجفاف والوباء، وبشرية لها صلة بالسكان في حلهم وترحالهم وأمنهم في أنفسهم وممتلكاتهم. فالصراع حول المجال (الأزغار) الغني بالإمكانات الطبيعية كان سببا في إفقاره عندما انتقل مستوى الصراع من التدافع إلى المواجهة المسلحة بين العناصر البشرية الراغبة في السيطرة على الأزغار، بل مجمل البلاد الغربية، وهم المصامدة بالخصوص الفرع الغماري الذي تراجع نحو الجبال والتلال المجاورة، ثم عرب رياح المستقدمون من الشرق نهاية القرن 6هـ/12م، وزناتة الوافدون من الجهة الشرقية، وأخيرا سكان الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط الذين استفادوا من التحولات التي عرفت موازين القوة لصالحهم، فوصلوا تجارا ثم مرتزقة في الجيش لينتهوا محتلين.

فما الذي ساعد على هذا التحول ؟

M. Houbaida « Notes... », op. cit., p : 71. (30)

أدى تحول الطرق التجارية من الشرق نحو الغرب إلى الاقتراب من الساحل، فانتعش خط فاس كورت البصرة القصر الكبير إما نحو أصيلا أو طنجة أو سبتة ليعوض الخط الداخلي الذي يربط سبتة بتطاوين إلى فاس عبر الجبل⁽³¹⁾. وبدأت البلاد الغربية الساحلية تحتل مكانة هامة في العلاقات بين المغرب الداخلي والمغرب المتوسطي منه والأطلسي، فازدهرت مدن مثل القصر الكبير على عهد الموحدين⁽³²⁾، وصفها صاحب الاستبصار بقوله : "قصر صنهاجة وهي على تل، وتحتة نهر لكس تدخله المراكب وتعرف بقصر عبدالكريم... أحدث به الأمر العالي (يعقوب المنصور الموحدي) في موضعه في هذه المدة 587هـ/2-1191م فندقين عجيبين، وتمدن هذا الموضع وشرف... يسكنه المتعيشون من البحر... وتشحن منه المراكب بالزرع"⁽³³⁾.

فرض هذا التحول باتجاه الساحل حركة الجهاد في الأندلس، والانفتاح الكبير على حوض الأبيض المتوسط منذ العصر المرابطي الذي تميز بدمج المغرب الجنوبي الصحراوي منطلق دعوتهم من جديد في اقتصاديات البحر الأبيض مستفيدين من تحول المحاور التجارية الكبرى شمال/جنوب والعكس، من الشرق إلى الغرب⁽³⁴⁾، وبجهادهم في الأندلس الذي متن الصلات البشرية التي لم تنقطع أبدا بشكل فردي، لتأخذ مع المرابطين والموحدين بعدا جماعيا. وحتى تتمكن هذه المجموعات من العبور (المدينة والعسكرية)، وقع تحول الطرق نحو الغرب أي السواحل انطلاقا من سلا والمعمورة وتشمس وأصيلا وطنجة، والتي كان كل من الجيش المخزني والمليشيات المسيحية العاملة ضمنه، يضمن الأمن فيها برا.

(31) أبو عبيد الله - البكري. المسالك... م.س.، ص. 114-115، مجهول، الاستبصار... م.س، ص. 190.

(32) تنسب قصة بنائها إلى المنصور، وغالب الظن أنه الموحدي، لكن هذه الرواية لا تصمد أمام الآثار الموجودة في القصر، مما يوحي بوجود بناء جديد، ويدل على عناية خاصة دعت إليها ضرورة العبور للجهاد في الأندلس. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص. 234-235. محمد دروا : المدينة في تاريخ المغرب : دراسة مجملية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ (غير منشورة)، سمح لي بالاطلاع عليها صاحبها مشكورا.

(33) مجهول الاستبصار...، ص. 189.

(34) هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1415هـ/1995م، ص. 377-388.

إذن هذا التحول في مركز الثقل الاستراتيجي والتجاري، جعل مدن الساحل والقرية منه المتصلة بالبحر عن طريق الأنهار الكبرى تحتل الصدارة، ومنها على الخصوص قصر كتامة والمعمورة.

خلاصات

لعب الأزغار والبلاد الغربية دورا هاما في تكوين المرينيين لدولة تقوم شرعيتها على أسس منها :

1- السنية المالكية : بدأت "بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" الذي تجلّى في محاربة قبيلة رياح بالأزغار المتهمه بإرباك الأمن والاستقرار بالأزغار والبلاد الغربية، وذلك ما توحى به لهجة المرينيين وخطابهم الذي تعكسه كتبهم الإخبارية . هذا الخطاب السني المالكي والذي انتهى كمسلسل ببناء المدارس في كبريات حواضر الجهة الغربية داخل مثلث فاس سلا طنجة، وهي مدن تحيط بالأزغار عند الانطلاق، وتقريب الفقهاء المالكيين والبر بهم.

2- الصلاح : رسمت الهستوغرافيا المرينية صورة رجل صالح لعبد الحق بن محيو جد السلالة المرينية الحاكمة بين بني حمامة، والتي تشكل جزء هام منها في الأزغار حيث قتل على يد قبيلة رياح، وحيث بنيت زاويته بتفراطست عام 684هـ/1285 م أواخر أيام حكم آخر أبنائه يعقوب بن عبد الحق المتوفي عام 685هـ/1286 م.

3- الجهاد : حادثة سلا التي كان هدفها في البداية مدينة أصيلا القريبة من شبه الجزيرة الإيبيرية، وتحولت إلى مدينة سلا في إطار مخطط قشتالي استهدف مدن الساحل المغربي الغربي، باعتبارها مدينة ذات أهمية استراتيجية واقتصادية فتحت الباب للجهاد، وهو أساس من أسس مشروعية قيام ووجود الدولة المرينية بل المغربية منذ العصر المرابطي.

4- تدافع المجموعات البشرية حول الأزغار لم يكن دائما سلميا، بل تتخلله أوقات عصيبة كان يتحول فيها إلى صراع دموي قد يؤدي إلى تنحية

مجموعات إثنية من الخريطة الاجتماعية، وهذا ما حصل لبني رياح وقبلهم بني حسن. الأولى (رياح) حجمت ولم تستطع الاستمرار بالوجود في هذا المجال إلا ضمن أطر اجتماعية أخرى غير الجيش عندما تبنت التصوف كخطاب وانخرطت فيه كتنظيم. والثانية (بني حسن) عندما تخلت عن جزء من هويتها المصمودية فاستعربت، ولم يعد لها من خيط يربطها بأصلها لا على المستوى الجنيالوجي، ولا على المستوى الثقافي وبالخصوص اللغوي.